الدارة

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

العدد الحادي عشر - المجلد الثالث ١٩٩٠م - ١٤١٢هـ

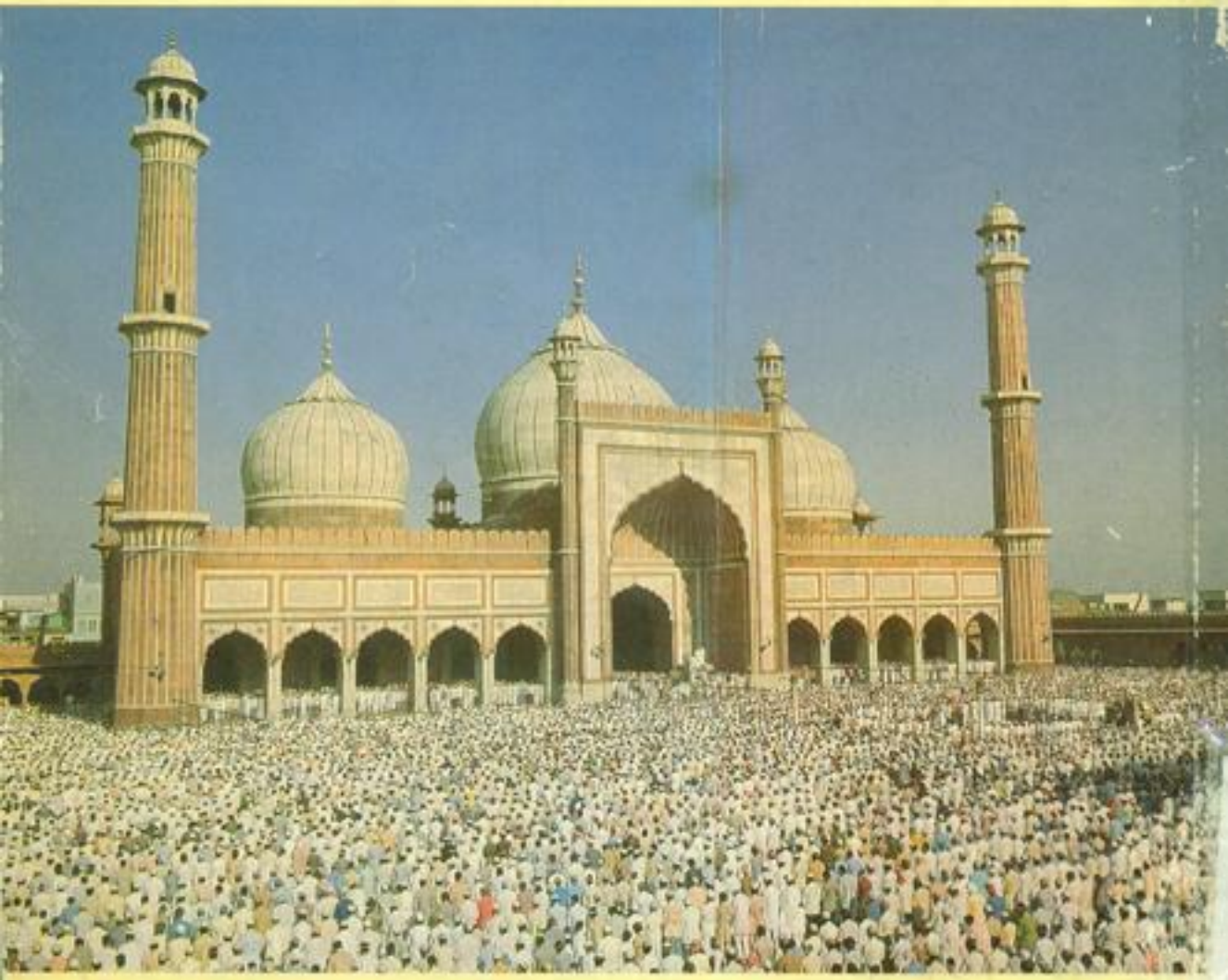

المسجد الجامع في دلهي - الهند

الموسم

فصلية
مجلة
مصورة تعنى بالآثار والتراث

شتاره ثبت ١٣٥٠٤٩
تاريخ ١ خرداد ١٣٨٩
٢١ /١٠/ ١٣٨٩

تصدر عن دار الموسم للإعلام
المراسلات : بيروت ـ لبنان ص.ب ١١٣/٥١٤٤

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

صاحبها ورئيس تحريرها
محمد سعيد الطريحي

الموزعون :

المملكة المتحدة ـ لندن ـ مكتبة الساقي
AL SAQI Books 26 WESTBOURN GROVE, LONDON W2 5RH TEL: 071-2298543, FAX: 071-2297492, TELEX: 919595G

دولة البحرين ـ مكتبة الريف الثقافية ـ شارع حد حفص ص.ب ٢٠٠٣٠ هاتف ٦٤٠٧١٣ ـ ٢٥٠٧٢٤ ، فاكس ٢٥٠٧٢٤ .

لبنان ـ المؤسسة العالمية لتوزيع الكتاب ـ بيروت ص.ب ٧٩٥٢ هاتف 835550-835820 تلكس FAGER-20398LE

سلطنة عمان ـ مكتبة المعرفة ـ مطرح ـ شارع الكورنيش ص.ب ٦٧٦٣ هاتف ٧١٣٦٠٧ فاكس ٧١٤٥٣٩

الهند NAGAFI HOUSE,159 Nishan pada rood Bombay - 400009 Tel: 6720350 - 8513299 - 861455

ايران ـ انتشارات صادق ـ تهران ـ خيابان ناصر خسرو ـ كوچه حاج نايب باساژ مجيدي تلفون ٣٩١٤٠١ ـ ٨٥٢٣٢٥

فرنسا ـ ABBAS AL BOATANI, 12 rue SADI CARNOT 92120 MONTROUGE Tel: 42536728

الاشتراك السنوي: للافراد ٤٣٠ وللمؤسسات ٤٥٠ يرسل باسم صاحب المجلة الى
بنك الاعتماد اللبناني فرع شتورة ـ لبنان رقم الحساب:
CRÉDIT LIBANAIS SAL AGENCE: CHTAURA, Lebanon No: 20.01.161.23138.00.10

المواد المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

منبر حرّ
للآراء والأفكار والتحقيقات ..

ندوة الموسم

كيف عرفت الشيعة ؟

بقلم عمر بن الحاج محمد صالح با (عُمر با)(*)

حتمت الظروف عليَّ ، وشاءت الأقدار لي ، أن أضرب في الأرض طالباً للعلم وسائحاً في آن معاً ، وكنت أول الأمر مستاء لوضعي . حيث لم تسمح لي الظروف في أن أعيش في بلادي مستقراً ودارساً فيها . كما قدر الله لغيري من أبناء بلادي ، واستثنائهم القدر عن مكابدة صعاب الاغتراب ، وحالفهم الحظ السعيد في تلقي العلم في مسقط رأسهم ، ووسط أهلهم ، بدون أن يتجشموا مشقات الأسفار ، ومتاعب الترحال ، وعناء الغربة ، وويلات مفارقة الأوطان . وفي الشرق ، حيث قصدت مع من قصد لتحصيل العلم ، أرغمتني الظروف أيضاً على التنقل في أكثر من بلد لأسباب كثيرة . غير أني سرعان ما بدأت أجدُ فائدة في أسفاري وتنقلاتي ، حيث أتاحت لي فرصة الاختلاط مع مختلف الشعوب ، وشتى الثقافات ، وأضراب من النحل والملل والأديان والفلسفات ، وعشت عياناً ما كنت أسمعه كقصص وأخبار ، وخابرت مشافهة ما كنت أقرأ وأطالع كحكايات ، فإذا هي فائدة كثيرة ، وإذا هو علم جم ، منّ الله علي به ، في حين كنت اعتقد أنها محنة رماني إليها سوء الطالع غير أني ـ وفي جميع أسفاري ـ كنت شديد الحرص على الاتصال بالمسلمين حيثما وجدوا ، لأسمع عنهم وأستفيد

(*)الاستاذ عمر محمد صالح من قبيلة با (في السنغال) المتفرعة من قبيلة الفلاني ، القبيلة الكبيرة المنتشرة في معظم أقطار غرب أفريقيا . وقد وُلد عمر با في جنوب السنغال وتلقى أول تعليمه بها ثم سار إلى (مالي) التي كانت المركز الثقافي لغرب أفريقيا ، حيث تلقى هنالك بعض العلوم في اللغة العربية وعلم الدين الاسلامي ، ثم انتقل إلى الخرطوم فدرس في معهد القضاء سنتين ، ثم انتقل إلى لبنان حيث التحق بكلية (أزهر لبنان) وبعد ذلك حصل على منحة من إيران فدرس في جامعة طهران حيث حصل منها على الشهادة الجامعية ، ثم حصل على منحة من جامعة جواهر لال نهرو في دلهي بالهند فواصل فيها دراسته العليا ونال شهادة الماجستير سنة ١٩٨١ م عن أطروحته الموسومة «دراسة في الفكر الاباضي» المطبوعة في سلطنة عمان ط١ (١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٦ م) مطابع النهضة ، والكلمة هنا مقتبسة من أطروحته هذه (ص٦ ـ ١٤) والكاتب الآن في العقد الرابع من عمره وهو يجيد العربية إجادة تامة كإجادته في لغته الأصلية السنغالية ، كما يجيد الانجليزية والفرنسية والفارسية .

منهم ، ولم أتقيد بقيود «المذهبية» ، ولم أتأثر قط بدعوتي «الطائفية» وروضت نفسي على عدم القبول لما يقال عن «فرقة» أو «طائفة» حتى أتصل بتلك الفرقة ، وأتعايش معهم ، وأسمع منهم ، وأقرأ لهم ما تيسر ، وأفهمهم كما هم ، حريصاً على اقصاء الزائف من العلم والمعلومات عن دماغي قدر الإمكان ، واضعاً في عين الاعتبار أن البشر هم ذوو تكوين واحد فلا يمتاز بعضهم عن بعض شيئاً ، ولا تعطينّ فلاناً عقلك يحشو فيه ما يشاء من أخبار يسميها المسلمات من حقائق العلم وجواهر المعرفة ، وتظل أنت أسير توجهاته ومخزن معلوماته ، وسوى القرآن الكريم ، فإن كل كتاب وقع في يدك فاعلم أن فيه صواباً وخطأً ، ولا تُسلّم مبدئياً صحة كلام معين من إنسان معين ، أو سقم كلام معين من إنسان معين ، غير أن كلام هؤلاء أيضاً دخل في ما دخل ، وتلاعبت فيه الأهواء . إن أيّ خبر وصلك افترض وجود نسبة مئوية فيه من الصحة ، وعدم الصحة ، ما عدا تلك الأخبار التي جاءنا بها الذكر الحكيم . أو ثبت انه قال بها الرسول الأمين ، لأنه (لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) وأما مهاتراتنا نحن البشر فإنها ـ في يقيني ـ ليس لها عند الله وزن . نعم ، فسوف تقرأ منافرات بين الفرق الإسلامية المعترف بها . وحاول دوماً ألاّ تفاضل بين المسلمين ولا يغرنك ما يقوله بعضهم على بعض ، فإنها مجرد انطباعات شخصية واجتهادات فردية ليس لها عند الله أي اعتبار لأنها مجرد انفعالات صادرة من بشريتنا . وعندما أقول الفرق الإسلامية فلا أقصد تلك التي وجدت في صدر الإسلام وما تلاها بُعيد حين كالبهائية والبابية والأحمدية و «القاديانية» ، التي هي خارجة عن تعريفي . فإنها لا تحسب في الفرق الإسلامية لأنها وإن كانت فيها شبهة إسلامية ، إلا أنها حاولت يوماً أن تكون ديناً جديداً قائماً بذاته ومستقلاً ، ولكن بتأييد من الإسلام ضمني ، ولكن بشهادة مزورة من الإسلام ، ولكن أن يبنى وجودها الديني والعقائدي على أنقاض الإسلام ، وعلى حساب الإسلام . ولما أعيتها الحيل ولما انكشفت خططها واتضح أمرها فإذا هي تحاول الاختفاء وراء الإسلام ، وتصطنع سلوك الإسلام ، وتظهر بمظهر الإسلام ، إلا أن الإسلام أعظم من أن تحطمه مكائد البهائية بوحي من اليهود أو تشوهه الأحمدية بتشجيع وتوجيه من الانجليز ، وعندما نقول «الفرق الإسلامية» فإننا نقصد تلك الفرق الإسلامية التي تعتبر محمداً رسولها ، ونبيها ، تقر به خاتم الأنبياء والمرسلين ، وتقرّ بالله رباً ، وبالقرآن كتاباً منزهاً من عند الله ، ولا كتاب بعده سينزل من السماء ، ولا نبي بعد محمد سيرسل من عند الله سبحانه وتعالى . وأما الخلافات الأخرى فهي قابلة للتأويل ، لأنها مجال للاجتهادات ، لأنها نتاج ملابسات معينة .

لقد شاء الله لي أن أولد في بلاد تتمتع بوحدة المذهب حيث أن كل أهل غرب أفريقيا من المسلمين مالكيون مذهباً ، وسنيون اعتقاداً ، فلم يكن في تلك المنطقة ـ إلى وقت قريب ـ أي نزاع ذي طابع ديني . أو طائفي مذهبي ، إلا ما يكون من قبل الجهال من العوام ، أو السذج من المتشيخين الذين ما نالوا ذرة من العلم ، يتعصبون لهذا الشيخ أو ذاك ، ويفاضلونهم ، في الولاية ، والغوثية والقطبية ، إلى آخر ما هناك من من اصطلاحات حشاها الشيخ في أدمغة العوام ، ليلقبوا بها شيوخهم رغم وجود طوائف صغيرة تسمي نفسها «وهابية» . والملاحظ أخيراً أن شبكات القاديانية بدأت تعيد بعض الضحايا من الذين لا يعلمون من الإسلام وتاريخه وحقيقته إلا بقدر ما يعرف الضب بالذي يجري في البحار . وهذه الظاهرة تزدهر فقط في المستعمرات الانجليزية القديمة حيث يتكاثر الهنود

والباكستانيون الذين أهم أصل هذه الدعوة .

إلا أني وما وطئت قدماي أرض الشرق حتى بدأت أسمع وأرى النزاع المذهبي وتنافس الطوائف بشكل جاد ، فهو ـ في الحقيقة ـ ليس بعجب لأن الشرق منبع الأديان ومصدر الإسلام ، فمنتهى الجذور يختلف جوامع منتهى الفروع . فعندما تم التحاقي في «أزهر لبنان» كطالب في تلك الكلية الشرعية الإسلامية ، وجدتني مضطراً أن أدرس مذهباً ـ وهو المذهب الحنفي ـ غير مذهبي الأصلي ، وهو المذهب المالكي . غير أني ـ والحق ـ لم أشعر تعصباً مذهبياً يمارس في تلك الكلية . وربما لأجل أزهريتها ـ وهي شبه فرع من الأزهر الشريف ـ فأساتذتها إما مصريون أقحاح . فأزهريتهم أضافت إليهم شيئاً آخر ـ بالإضافة إلى فطرتهم ـ من المرونة حيث إن رسالة الأزهر الإسلامية تقتضي عدم التعصب ، كما أن رسالتها الإسلامية إلى غير المسلمين تتطلب التسامح .

وإما أن يكونوا من اللبنانيين الأصليين ، أي إنهم ثقافياً وتعليمياً أزهريون بحكم التربية والتعليم ، بيد أنه بصرف النظر عن الجو الأزهري المتناغم ديناً ومذهباً ، فإن طبيعة تركيب المجتمع اللبناني تهيء الطالب الأجنبي تهيئة طائفية ، دينياً كان أو سياسياً ، لأن الجو مشبع بخليط من الأفكار والاتجاهات المختلفة . فالمدارس بمللها ونحلها ، والمعاهد بمختلف الرسالات ، والجامعات بمختلف الأهداف والغايات ـ كلها مؤسسات مبثوثة بثاً ومنثوثة نثاً من هنا وهناك ، تفرز مختلف الأفكار والايديولوجيات لأنها تدار من مختلف الأدمغة ، فهنا ـ أنا أيضاً ـ بدأت أتصل فكرياً بكثير من الأفكار الإسلامية اتصالاً مباشراً وعملياً .

فمادة «الفرق الإسلامية» كانت مقررة على طلبة السنة النهائية فدرست بعض الشيء كمعلومات عامة ، بل مبادىء أولية عن الفرق ، لأن الدراسة المنهجية بطبيعتها المحددة والمرسومة لا تستطيع أن تقدم دراسة مفصلة تفي بالغرض بيد أن المعلومات العامة التي درسناها عن الفرق أتاحت لي فرصة تعميق المدارك فيها حيث وجدتني مولعاً بالمطالعة لكل شيء يتصل بالفرق . فدراسة الفرق تثير الفضولة لدراسة التاريخ الإسلامي . دراسة جادة حسنة . ونظراً إلى كون لبنان ـ وربما أيامئذ ـ المركز الثقافي في الشرق الأوسط ، فإن الكتب والمراجع هي في متناول يد كل من له شغف من التزود بالعلم ، وما على المرء إلا أن يرتاد المكتبات ، وما أكثرها .

غير أني لم أكن في الحقيقة خالي الذهن تماماً عن بعض هذه الفرق الإسلامية ، وبخاصة «الشيعة» . وهنا بدأت اقرأ عن التشيع لأن الشيعة ألمع الفرق ، وأكثرها إثارة . وما فتح الباب أمامي وجود مدرسة شيعية تابعة للإمام موسى الصدر في مدينة صور ، بأن وجود مجموعة من التلاميذ الأفارقة من «غرب أفريقيا» فيها . وهو أمر أتاح لي فرصة زيارة هذه المدرسة مرات متتالية ، وفي أول الأمر كنت أتصرف مع جو المدرسة بشيء من التحفظ والحذر ، بل عدم الاهتمام ، غير أني يوماً ـ في إحدى زياراتي لها ـ رأيت شيخاً من شيوخهم يدرس النحو «ألفية بن مالك» بشرح وتعليق أعجباني ، ورأسه مكوّر بعمامة سوداء كعادة الشيعة . فأنا تلميذ مشغوف ومغرم بقواعد اللغة العربية ، فجلست في أخريات الجالسين أستمع منصتاً ، والشيخ لا يحمل كتاباً ولا ينظر إلى قرطاس ، أو سبورة ، وكأنما الشواهد النحوية منقوشة في ذهنه نقشاً ، ومحفورة في ذاكرته حفراً ، فحيناً يستشهد ببيت شعر جاهلي ، ثم يتلو القصيدة التي فيها البيت برمتها . بدون ما داع ، وطوراً يستحضر آية قرآنية ، وربما انساب لسانه فيها

انسياباً . حتى آخر السورة ، فتارة يقول : قال الأشموني كذا في هذه المسألة ، قال المكودي كذا فيها ، قال ابن عقيل كذا فيها وقال ابن هشام فيها كذا . وأما السيوطي في ألفيته ، فإنه يقول كذا وكذا . ويقوم تلميذ النحو ويحل محل تلميذ المنطق ، فإذا الشيخ في المنطق منطقي أكثر منه في النحو نحوياً . يشرح ويفصل في المقدمات : صغراها وكبراها ، ونتائجها ومحمولها ، ومصورها ، ومصدقها ، ودالها ومدلولها ، وكأنها اصطلاحات من صنع يديه . لم يسبقه إليها سابق . فإذا أنا أجد نفسي منساقاً بالتسليم عليه باحترام جم ، وابتسم لي فقال : كأني بك ضيفاً ، ليس لي سابق عهد برؤيتك هنا ؟ قلت أي إنك لصادق ، فحدثته اني أزهري (طالب في أزهر لبنان) فاستحسن ، فقال إني لجد سعيد أن أرى ناشئة الإسلام يسافرون من ديارهم إلى الشرق منبع الإسلام ليتلقوه صافياً خالياً من الشوائب والأدران . وطلبت منه أن يرشدني إلى الكتب التي أستطيع التزود منها بمعلومات عن المذهب الجعفري «الشيعي» فقال ان أردت ذلك مبدئياً عليك بكتب الشيخ شرف الدين الموسوي العاملي ، وهكذا اتصلت بهذا المذهب العظيم . عن طريق هذا الرجل العملاق الذي يجهل مقامه كثير من أبناء الإسلام ، من غير الشيعة ، بيد أني لا أخفي بأني كنت مشبعاً عن المذهب الجعفري بمعلومات أدرك الآن ـ والحمد لله ـ بأنها في أحسن تعبير كانت سقيمة وفاسدة ، ولا تمت إلى واقع الجعفرية والتشيع بصلة ، ولذا فإنني في أول الأمور كنت ربما قرأت مقدمة كتاب ، ثم أضعه جانباً متكاسلاً عن مواصلة القراءة لأني ـ نفسياً ـ لم أكن مهيأ للانسجام مع الموضوع الجديد . إلى أن لفت نظري كتيب صغير الحجم ـ شيعي ـ أغراني عنوانه بقراءته واسمه «أصل الشيعة وأصولها» أعتقده من مؤلفات الشيخ حسين كاشف الغطاء . فقرأته مرة تلو أخرى لاطمئنان نفسي فيما جاء فيه من تقرير ، لأنه كتاب وضعه قلم شيعي ، فإني ـ إذا ـ واثق بأني أحشو عقلي بمعلومات صحيحة عن الموضوع الذي أقرأ فيه (التشيع) والحق أني لم أجد فيه ما يسيء إلى القوم أو ما يجعل عقيدتهم تنسب إلى الخنى . فشاورت أحد العلماء الكبار الذين أثق ثقة مطلقة في علمهم وحيادهم ـ إن جاز استخدام كلمة «الحياد» في المسائل الاعتقادية ـ من الأزهريين عن حقيقة الشيعة والتشيع . فأفتاني بل أسهب في الفتيا ، ومما قاله لي : إن إسلام الشيعة كإسلام أي مسلم آخر لوحدة المصدر . وهو كتاب الله والسنة ، فالشيعة في اجتهاداتهم يصيبون ويخطئون ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من أهل السنة . وهنا شرعت بشيء من الاهتمام أكثر من القراءة لهم ، مما دفعني أيضاً إلى توسيع حصيلتي عن التاريخ الإسلامي . لمعرفة مزيد من الجذور التاريخية للمذاهب الإسلامية ، ومواطن اختلافاتها . وأسباب تلك الاختلافات . ودوافعها ، وأتاح لي الحظ زيارة «إيران معقل الشيعة» ودرست في جامعة طهران ردحاً من الزمن ، مما أتاح لي فرصتين عظيمتين ، فرصة الاتصال برجال الشيعة الكبار وعلمائها الأجلاء في مدينة «قم» (المقدسة لدى الشيعة) وغيرها من المدن الكبيرة ، وفرصة قراءة الفكر الشيعي عربياً وفارسياً ومناقشة علماء الشيعة مشافهة (بصفتي سنياً طبعاً) والحق اني ـ شهادة أمام الله ـ أقول بأني لم أجد فيهم ما كنت أسمعه عنهم من أقوال منكرة وتصرفات بذيئة . ولم أر شيئاً منكراً يأتي به عوامهم إلا ويأتي بمثله أو أضاله عوام السنّة في مصر ، أو في المغرب ، أو في السودان ، أو في السنغال ، مما يدفع عنهم تهمة «تخريب الإسلام والغلّو فيه» . والحق إن ما يوجد لدى غير الشيعة من الغلّو ، كالاعتقاد بجدوى زيارة الأولياء ، والتمسح بأضرحة الصالحين ، والتضرّع إليهم . والإيمان بشيوخ الطرق . لا أعتقد بأنه يوجد مثيل له لدى الشيعة ، وهو

واقع يجعل المنصف ملياً قبل توجيه سهام الاتهام إليهم بالغلو وممارسة البدع .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تاريخ الشيعة جزء مهم من التاريخ الإسلامي ، فهو ـ إذاً ـ تاريخ إسلامي . فلا ينبغي أن ندرس أياً من هذه التواريخ على أنه منفصل أو على أنه يخص فرقة معينة ، أو أن ندرس تاريخ الفرق . وكأنه تاريخ مليء بالافتراءات والأكاذيب ، فهذا تحامل سافر . فأنا شخصياً قد تكوّن لديّ انطباع مفاده أن تاريخ الفرق أو التاريخ الذي لم يكونوا يكتبون مترجمين لوجهات نظر الدولية الأموية . أو وجهات نظر الدولة العباسية ، أي إنهم ما كانوا مقربين إلى ذوي النفوذ في هاتين الدولتين اللتين تعتبران البناء المتكامل للعقل العربي الإسلامي . فيما أنهم لم يتعاملوا مع هاتين الدولتين ، فإنهم أبعد من أن يكونوا تحت تأثير الناقدين فيجاملوهم في كتاباتهم ، أي إن تاريخهم ، أو بالأحرى التاريخ المكتوب بأقلامهم ، لا يعكس وجهة نظر الدولة الإسلامية فيكون أشبه «بالتاريخ الرسمي» والتاريخ الرسمي تاريخ سياسي ، فنسبة الصحة فيه ضئيلة . فمن المعلوم أن الأباضية والجعفرية والفرق الأخرى التي كانت تناهض الدولتين ـ الأموية والعباسية ـ ما كان قضاتهم مع الحكام والولاة لهاتين الدولتين ، فيقوموا بإصدار فتاوى لهم لاستحلال دماء بعض الناس ، أو استخراج حيل شرعية للولاة لتحليل حرام أو تحريم حلال . ولم يرو عنهم أنهم كانوا ينتقلون من مذهب إلى آخر ؛ طمعاً في منصب القضاء ، فهم ـ إذاً عندما يتحدثون عما كان يجري في هاتين الدولتين إسلامياً ، فإن شهادتهم تكون أجدر بالقبول لبعدها عن تبرير الموقف

وإذا كان للفرق عثراتها وزلاتها ، فإن لغيرهم عثراتهم وزلاتهم ، غير أن كثيراً من الناس يغضون البصر عن سيئات ما يحبون . وينقبون عن سيئات ما لا يحبون .

عندي أن المسلمين جميعهم على قدم المساواة لا توجد ميزة تنفرد بها طائفة دون غيرها ، فتبادل التهم مهاترات لا تصل إلى السماء . لقد آن الأوان للتخلي عنها . فقولك إن مذهبي هو المختار الصحيح المقبول عند الله هو قول قلته أنت ، لم يقله الله ، ولم يقله رسول الله . فثق أن غيرك راض عن مذهبه ومطمئن فيه . فعندما تفتي نفسك بصحة وسلامة اعتقاداتك . فإن فتواك هذه من باب مدح أعطاف الذات فإن غيرك أيضاً يستطيع فعل نفسي الشيء ، والواقع أنه ينبغي أن نبتعد الانفعالات العاطفية عن المسائل الدينية .

والله ولي التوفيق . . .

عمر بن الحاج محمد صالح با
جمهورية السنغال (افريقيا)

مـدّي بـساطي واملأي أكـوابي ... وانسي العتـاب فقد نسيت عتابي
(بغـداد) عشت الحسن في ألوانه ... لكن حسنـك لم يكن بحسـابي
مـاذا سأكتب عنـكِ يا فـيروزتي ... فهـواك لا يكفيـه ألف كتـاب
(بغـداد) يا هـزج الخلاخـل والحلى ... يـا مخـزن الأضـواء والأطيـاب

نزار قباني (سورية)